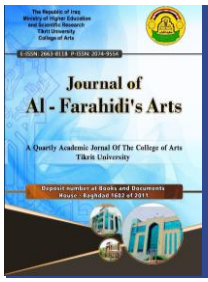

Tikrit University | جامعة تكريت
مجلة آداب الفراهيدي
Journal of Al-Farahidi's Arts

The Rise and Decline of The State According to Ibn Khaldun

[*] Prof. Dr. Ibtisam Hamoud Mohammed
[1] Prof. Dr. Thamer Azzam Hamad
[*], [1] History Department, College of Education for Humanities, Tikrit University
[*], [1] Salahuddin, Iraq

نشـــأة الدولـــة واضـــمحلالها عنـــد ابن خلدون

(*) أ. د. ابتسام حمود محمد
(1) أ. د. ثامر عزام حمد
(*)، (1) قسم التاريخ، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة تكريت
(*)، (1) صلاح الدين، العراق

SUBMISSION التقديم	ACCEPTED القبول	E-PUBLISHED النشر الإلكتروني
10/08/2024	17/10/2024	30/12/2024

P-ISSN: 2074-9554 | E-ISSN: 2663-8118 https://doi.org/10.25130/jaa.9th.4.7 Conference (9th) No (4) September (2024) P (72-80)

ABSTRACT

The subject of the state in contemporary political and legal literature is one of the challenges and obstacles facing researchers, despite the existence of many books and writings that have researched this subject, or revolved around it, as the definition of the state alone is a subject of controversy in various political and legal approaches, but the great transformation in this field in which our Arab thinker Abdul Rahman Ibn Khaldun excelled, as he was able to address the subject of the concept of the state in a simpler way, through which he contributed with merit and a generous contribution to the establishment of the foundations of the study of the state, as Ibn Khaldun was a man distinguished by clarity, simplicity and realism in his opinions and intellectual tools adopted in analyzing the phenomena of society and studying history, and through his own experiences within the framework of his tribe and Arab society, he set out to study the state with its social, political and economic phenomena, and put forward a detailed analysis of the emergence, development and decline of the state.

الملخص

يُعد موضـوع الدولة في الأدبيات السـياسـية والقانونية المعاصـرة, من التحـديات والمعوقات التي تقف أمام البـاحثين, بـالرغم من وجود الكثير من المؤلفات والكتابات التي بحثت في هذا الموضـــوع, أو دارت حوله, اذ ان تعريف الدولة بمفرده يعد محل جدل في مختلف المناهج السـياسـية والقانونية, لكن التحول الكبير في هذا الميدان الذي أبدع فيه مفكرنا العربي عبدالرحمن بن خلدون, اذ اســتطاع معالجة موضــوع مفهوم الدولة على نحو أكثر بســاطة, حيث أسهم من خلاله بجدارة أسهاما كريماً في تنهيج أسس دراسة الدولة, فقد كان ابن خلدون رجل يمتاز بالوضــوح والبســاطة والواقعية في آرائه وأدواته الفكرية المعتمدة في تحليل ظواهر المجتمع ودراســة التاريخ, ومن خلال تجاربه الخاصــة في اطار قبيلته ومجتمعه العربي انطلق لدراســة الدولة بظواهرها الاجتماعية والسـياسـية والاقتصـادية, ووضـع تحليل مفصـل لنشـوء الدولة وتطورها وتدهورها.

KEYWORDS

Ibn Khaldun, The State, The Growth of States, The Emergence of States, The Prosperity of States, The Theory of Power, The Collapse of States

الكلمات المفتاحية

ابـن خلـدون، الدولــة، نمــو الــدول، نشــأة الــدول، ازدهــار الــدول، نظرية القوة، انهيار الدول

Copyright and License: This is an Open-Access Article distributed under A Creative Commons Attribution 4.0 License, which allows free use, distribution, and reproduction in any medium provided the original work is properly cited.

المبحث الأول: نشأة الدولة عند ابن خلدون:

يعود ظهور الدولة ووجود المجتمعات إلى حاجات الإنسان الضرورية، أي الحاجة إلى الطعام واللباس والمسكن ثم الاستقرار، غير أن الحاجة المتكررة لتلك الضروريات ورغبة الانسان في تحقيقها أدى إلى وجود تبادل المنافع بين الناس عامة، ولم يكن من الممكن أن تتحقق هذه الاخيرة إلا اذا عرف كل فرد دوره في المجتمع وتحت ضوابط معينة يتم العيش وفقها وضمنها، وذلك كله أصبح مع مرور الوقت تحت ما اصطلح على تسميته بالدولة, وإذ يختلف مفهوم ونشأة الدولة من مفكر إلى آخر ومن مدرسة تاريخية وفلسفية إلى أخرى ، فإننا سنستعرض في هذا البحث نشأة الدولة عند ابن خلدون.

المطلب الأول: التعريف ابن خلدون:

أولاً: ولادته ونشأته:

هو ابو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الملقب بإبن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون) ولد في تونس (كانت تسمى في العصور الاسلامية الاولى افرقيه), في ٢٧ أيار ١٣٣٢م, في عائلة نبيلة تفتخر بنسبها العربي, كان منزل أهله تدار فيه حلقات أدبية حقيقية, تأتي اليها ابرز الأسماء في الأدب والدين, اذ إن تونس كانت في ذلك الوقت مستقر العلماء والأدباء في المغرب, ومستقر لأكثر علماء الأندلس, الذين وفدوا اليها بعدما حل في بلادهم النكبات (حسين عاصي، ١٩٩١).

قضى ابن خلدون فترة حياته الأولى في الدروس التقليدية تحت اشراف والده, اذ كان والده متخصصاً في الأدب واللغة العربية, وتحت اشراف علماء وشيوخ مشهورين, أو اصدقاء للعائلة ودرس ايضاً القرآن والحديث وجزء مهم من الفقه المالكي, اذ نستطيع ان نقول, ان دراسته الأولى كانت واسعة بالمقارنة مع الدراسة التي كان يتلقاها اقرانه في ذلك الزمان, وتلك كانت الثمرة الأولى لوضعيته الاجتماعية, فضلاً عن انه كان يتميز بعبقريته وقدرته الهائلة على الاستيعاب, فكل انواع المعرفة تهمه, كما ان اشتراك عائلته في الحياة السياسية لدولة الحفصيين, رسم لوحة تقريبية للوضعية النفسية والذهنية التي عاشها ابن خلدون في شبابه (ناصيف نصار دار الطليعة، ١٩٨١).

في عام ١٣٤٩ عصف الطاعون في مدينته وتسبب في فقده لأبويه ومعظم مشيخته، فأثر ذلك في نفسه، وقرر مغادرة تونس (مغربي، ١٩٨٨).

ثانياً: حياته المهنية وأهم الاعمال التي تولاها:

تم استدعاء ابن خلدون سنة ١٣٥٢م , للكتابة للسلطان أبي اسحاق بن يحي أحد سلاطين الدولة الحفصية (عاصي), وله من العمر في ذلك الوقت عشرون عام، وكان وهو في تونس يرغب بالسفر إلى المغرب الأقصى حيث دولة بني مرين أقوى دويلات المغرب، وكان يطمح أن يلبي فيها رغباته وميوله في طلب الرياسة والجاه، وبعد أن تمَّ له السفر إلى المغرب اتصل بالسلطان أبي عنان ، فجعله السلطان في مجلسه العلمي، وطلب منه أن يحضر الصلاة معه، ثم عيّنه ضمن كُتّابه وموقعيه، ومنذ ذلك الحين ظهر ابن خلدون شخصية بارزة في الدول المغربية، ثم وشي للسلطان أن ابن خلدون يدبر مؤامرة عليه فقبض عليه السلطان وسجنه، وبعد عامين من السجن توفي السلطان أبو عنان فأخرج ابن خلدون وأعيد لوظائفه في الدولة، ثم ولي للسلطان أبي سالم كتابة السر والإنشاء، وخطة المظالم (القضاء) ، وبعد ذلك كانت رحلته الأولى إلى الأندلس, لكنه ما لبث أن ضجر من وظيفته, فقرر تركها في أول فرصة تأتي اليه, وقد أتيحت له الفرصة في العام نفسه, اذ نشبت حرب بين تونس وقسنطينة, فإستغلها وغادر الى بسكرة طلباً للراحة, عاد بعدها الى تونس, اذ تزوج سنة ١٣٥٤م, من فتاة تتمتع أسرتها بالثراء (مغربي، ١٩٨٨) .

انتهى المطاف بابن خلدون مرة أخرى في تلمسان، وفيها اعتزل مدة ٤ أعوام في قلعة بني سلامة، فنعم بالهدوء والاستقرار، وبدأ كتابة مؤلفه الكبير في التاريخ "**ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**"، فأخرج مقدمته التي اشتهر بها في ٥ أشهر بعد أن "أُلهم تلك النظريات

والمباحث المهمة التي تتبوأ مكانة رفيعة بين ثمرات التفكر البشري"، ثم إن ابن خلدون يحدثنا عمَّا اعتراه في تلك الخلوة التي أخرج فيها مقدمته المشهورة فذكر قائلا "**وأكملت المقدّمة على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها، وتألّفت نتائجها**"، وبعد ذلك رجع إلى تونس حيث مكتبته الزاخرة التي تسعفه في إتمام مشروعه في كتابة تاريخ الخليقة، ثم كانت رحلته الأخيرة إلى مصر (الطلفاح، ٢٠٢٣).

كان من أبرز الأحداث التي جرت لابن خلدون إبان إقامته في مصر لقاؤه بتيمورلنك في دمشق، وذلك بعد أن ذهب مع السلطان فرج بن برقوق لقتاله، ثم كان أن رجع السلطان إلى مصر تاركًا دمشق تواجه تيمورلنك وحدها؛ فسعى علماؤها في طلب الصلح من تيمور، ثم كان أن ذهب ابن خلدون لذلك والتقى بتيمورلنك، وبعدئذ قفل راجعًا إلى مصر منتظمًا في وظيفته، وظل في مصر إلى أن توفي عام ٨٠٨هـ، "ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر" (طه، ٢٠١٢).

تكلم ابن خلدون في كتابه "**التعريف**" عن المنهج العملي الذي سلكه في القضاء، وهدف من ورائه إصلاح الفساد الذي شاع في مؤسسة القضاء في دولة المماليك، ثم كان أن كتب رؤية إصلاحية خاصة بتلك المؤسسة في رسالة اسمَّاها "**مزيل الملام عن حكام الأنام**"، حقق تلك الرسالة وأثبت نسبتها لابن خلدون فؤاد عبد المنعم أحمد، وطبعها في كتاب سمَّاه "**ابن خلدون ورسالته للقُضاة مزيل الملام عن حكام الأنام**" ثم ذيَّل كتابه بذكر نص رسالة ابن خلدون (طه، ٢٠١٢).

عرض ابن خلدون في كتابه "**التعريف بابن خلدون**" رؤيتَه الإصلاحية المتعلقة بمؤسسة العلاقات الخارجية، وذلك من خلال مساعيه في تقوية الصلات بين السلطان برقوق وسلاطين المغرب الإسلامي وقد نجح في ذلك كما ذكر في كتابه "التعريف" أيضًا لقاءاته بتيمورلنك وما انتهت إليه تلك اللقاءات (الطلفاح، ٢٠٢٣).

المطلب الثاني: مفهوم نشأة الدولة وتطورها عند ابن خلدون:

تحتل الدولة عند ابن خلدون مكاناً مهماً في افكاره وكتاباته, اذ ذكر ساطع الحصري (ان الدولة من المواضيع التي اعتنى بها ابن خلدون في بحثه اعتناءاً كبيراً, اذ خصص ما يقارب من ثلث المقدمة لهذا البحث), ومن ناحية اخرى فإن كلمة (دولة) تظهر كثيرا في مقدمة ابن خلدون, الا ان ابن خلدون في مقدمته لا يعطينا تعريفاً محدداً لها, فنلاحظ انه يستعملها مرة كمرادف للملك , ومرة أخرى كمرادف للسلطان, وعندما كان يستخدمها كمرادف للملك كان يقول : (**ان العمران كله من بداوة وحضارة وملك له عمر محسوس, كما ان للشخص الواحد من اشخاص المكونات عمراً محسوساً**), واشار ابن خلدون في موقع آخر من مقدمته (**إن لكل دولة أمد**) فالدولة أو الملك لهما عمر و أمد محدد (الوردي، ١٩٦٢).

ولا يعرِّف ابن خلدون الدولة، بل تكلَّم عنها وكأنه يعدها من الأمور المعلومة والمفهومة التي لا تحتاج إلى تعريف، وكثيرًا ما يرادفها بكلمة «**الملك**»، ويذكر في مواضع كثيرة جدًّا (الدولة والملك)، ومع ذلك يُسْتَدل من بعض العبارات التي كتبها أنه لا يعد هاتين الكلمتين مترادفتين تمام الترادف، بل استعمل كلمة الملك في بعض المواضع بمعنى أخص من معنى كلمة الدولة، فذكر لذلك عن بعض الأمراء إنهم (**ملوك على قومهم، يدينون بطاعة الدولة**) (الوردي، ١٩٦٢).

(من كان فوقه حكم غيره كان ملكه ملكًا ناقصًا، مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة. وكثيرًا ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق، أعني يوجد ملوك على قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعتهم، مثل صنهاجة مع العُبيديين، وزناتة مع الأمويين تارة، والعبيديين تارةً أخرى، ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس، ومثل ملوك الطوائف من الفُرْس مع الإسكندر وقومه اليونانيين) (الطنجي، ١٩٥١).

أن الدولة في نظر ابن خلدون هي (**الملك التام**) الذي لا يكون فوقه حكم آخر، وأنها قد تجمع تحت حكم واحد عدة أقوام، وعدة ملوك على تلك الأقوام, ولذلك السبب كثيرًا ما نرى ابن خلدون يضيف إلى كلمة

الدولة صفة (العامة), للدلالة على مقصودة بوضوح أتم، فقد ذكر (**الدولة العامة**) في مواضع كثيرة؛ تمييزًا لها عن «**الدولة**» على وجه الإطلاق, اذ إن مفهوم الملك في نظر ابن خلدون ينطبق على مفهوم (الدولة) تمام الانطباق، ويختلف عن مفهوم (الدولة العامة) و(الدولة المتسعة النطاق) بعض الاختلاف (عياد، ١٩٣٤).

وأمَّا مفهوم (الملك) نفسه فيعرِّفه ابن خلدون في فصل الخلافة عندما رأى لزومًا لتمييزه منها:

(المُلْكُ السياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار)، (والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها) (عياد، ١٩٣٤).

لاحظ ابن خلدون أهمية الدولة بالنسبة إلى المجتمع، فقرّر أن الحياة الاجتماعية تستلزم الملك والدولة؛ لأنه ذكر: (الدولة والملك للعمران) (أي للاجتماع) بمثابة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها، وقد تقرَّر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر (أي انفكاك الصورة عن المادة)، فالدولة دون العمران لا تُتَصَوَّر، والعمران دون الدولة والملك متعذر؛ لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع), وشرح ابن خلدون ذلك التأثير المتقابل بين الدولة والعمران بعض الشرح، وأستعمل خلال ذلك الشرح تعبيرين جديدين, الدولة الكلية والدولة الشخصية, قصد ابن خلدون بالدولة الكلية: الدولة في عهد أمة أو أسرة بأجمعها, على اختلاف أفراد الملوك في حين أنه قصد بالدولة الشخصية: الدولة في عهد ملك واحد من ملوك القوم، أو من أفراد الأسرة المالكة، إذ قال: (**فإذا كان الملك والعمران لا ينفكَّان، فاختلال أحدهما مؤثّر في اختلال الآخر، كما أن عدمه مؤثر في عدمه**) (الأسود، ١٩٧٣).

والخلل الكبير إنما يكون في خلل الدولة الكلية، مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم، أو بني أمية أو بني العباس كذلك، وأمَّا الدولة الشخصية مثل دولة هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد فأشخاصها متعاقبة على العمران، حافظة لوجود بقائه، وقريبة الشبه بعضها من بعض, فلا يؤثر اختلالها في العمران تأثيرًا كبيرًا لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران، إنما هي العصبية والشوكة، وهي مستمرة على أشخاص الدولة، فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران, ذهب أهل الشوكة بأجمعهم، وعَظُمَ الخلل (الساعاتي، ١٩٧٥).

كما إن الدولة في نظر ابن خلدون لا تبقى طول حياتها على حالة واحدة، بل إنها تتطوَّر تطوُّرًا مستمرًّا من نشأتها إلى انقراضها من تمهيد أمرها إلى اختلال أحوالها وزوال كيانها إن ذلك التطوُّر شمل نواحي عديدة، وحدث في اتجاه معين وفق نظام ثابت؛ فإن كل دولة تنتقل من حالة إلى حالة ومن طور إلى طور، وتلك الحالات والأطوار تتوالى على وتيرة واحدة، تشمل جميع الدول والأدوار بلا استثناء (الساعاتي، ١٩٧٥).

تبع ابن خلدون التطوُّرات التي طرأت على الدول من ناحيتين أساسيتين:

١. التطوُّرات التي حدثت في الدولة من ناحية الأحوال العامة والأخلاق.

٢. التطوُّرات التي تحدث في الدولة من ناحية العظم واتساع النطاق.

قرر ابن خلدون من الناحية الأولى أن كل دولة تنتقل في أطوار مختلفة، لا تعدو في الغالب الخمسة؛ الأول: طور الظفر بالبغية، الثاني: طور الانفراد بالمجد، الثالث: طور الفراغ والدعة، الرابع: طور القنوع والمسالمة، والخامس: طور الإسراف والتبذير، وقرّر من الناحية الثانية أن كل دولة يتسع نطاقها أولًا إلى نهايته، ثم يأخذ ذلك النطاق في التقلُّص والتضايق طورًا بعد طور، إلى فناء الدولة واضمحلالها (الأسود، ١٩٧٣).

المبحث الثاني: أصل الدولة عند ابن خلدون:

لم يَذكر ابن خلدون تعريف صريح عن "الدولة", فكان يستخدم اللفظ لأكثر من معنى فمثلاً تعبيره عن الملك بلفظ الدولة, واستعمل لفظ الملك بعدة معاني, منها: الدولة, السلطة, الحاكم, الحكم، وغيرها من معاني, توضح لنا أنه يستعمل أحيانا غير قليلة التعابير نفسها لمعان مختلفة أو يعطي معنى واحد لتعابير مختلفة, ولكنه ،بقى إبداع ابن خلدون متجليا في ذلك الميدان باستعماله تعبير(الدولة) كمفهوم سياسي في

الوقت الذي كانت فيه تلك الكلمة لا تجد مكانها بين المفردات السياسية في الغرب وطرح ابن خلدون أيضاً عنصر (الشعب)، كأحد العناصر المهمة للدولة، وهو لا يكتفي بذلك بل أكد أولوية ذلك العنصر على السلطة بشكل خاص، أي أنه لكي تكون هنالك سلطة فلابد إذا من وجود شعب، الذي يسبق بوجوده بكثير عملية تشكل الدولة وصيرورتها، كما أكد أنه لم يهتم في القسم الأكبر من مؤلفه إلا بتلك العصبية المنشأة للدولة بشكل خاص.

المطلب الأول: عوامل نمو وازدهار الدول:

هناك بعض النظريات التي حاولت تفسير نشأة وتطور الدولة عند ابن خلدون فمن بين تلك النظريات، نظرية التطور الاجتماعي، ونظرية القوة أو الغلبة، والمجتمع المدني.

١. نظرية التطور الاجتماعي:

أو تسمى بالنظرية التاريخية, ترى النظرية أن الدولة تنشأ من عدة عوامل من أهمها (علاقة الدم, الدين, الوعي السياسي), علاقة الدم أو ما تسمى بصلة الرحم فترى النظرية أن الأسرة لها نوع من السلطة السياسة وإن كانت محددة بالمحيط العائلي, فتتمثل السلطة في مكانة الأب والأم وسلطتهما على الأبناء, لذلك عدت سلطة رب الأسرة أقرب إلى سلطة الدولة, وذلك لوجود عنصر الانقياد والخضوع, فالشعب يخضع لسلطة الحاكم السياسي, والأبناء يخضعون إلى سلطة رب الأسرة, والجدير بالذكر أن علاقات الدم وصلة الأرحام هي ما عبر عنها ابن خلدون باسم العصبية, وهي من أهم العوامل المكونة للدولة كما سنوضح لاحقاً, وركزت النظرية كذلك على الدين لما لها من دور معنوي معزز, وكما تزود الدولة بالدعائم التي تساعد على قيامها, أيضاً ركزت النظرية على الوعي السياسي فكان المقصود منه هو الوعي بضرورة وجود نظام سياسي لحماية أنفسهم وممتلكاتهم, ووجود الأمن, والنظرية أكدت أن ابن خلدون كان من أشد أنصارها, وذلك لأن العوامل التي ذكرتها النظرية هي عوامل رأى ابن خلدون أنها مهمة لنشأة الدولة (العصبية, الوازع الديني) (خلدون).

٢. نظرية القوة أو الغلبة:

أكدت نظرية القوة والغلبة على أن الدولة نشأت نتيجة للعنف والقوة, وأنها أداة تستخدم داخل المجتمع مع الشعب للردع, وخارج المجتمع لفرض هيبة الدولة وحماية حدودها, والدفاع عنها, فتبرر النظرية أن استخدام القوة هو مبدأ طبيعي وضروري في الحياة, فالقوة بين جميع الكائنات الحية, والعشائر, وبين الدولة والأمم في حروبها, أيضاً لها استخدام إيجابي لفض النزاعات, أما عن الجانب السلبي في النظرية فقد أكدت أن كل الدول لا تقوم إلا على القوة والعنف, إلا أن هناك نظرية أخرى أتت بعكس ما قالته نظرية القوة والغلبة, وهي نظرية العقد الاجتماعي التي ترى بأن الدولة تنشأ على أساسين هما: الاتفاق الواقع بين المجتمع ويتلوه عقد أبرمه أعضاء من المجتمع على إنشاء دولة, وعلى الرغم من أن نظرية العقد الاجتماعي أتت بما لم تأتي به نظرية القوة والغلبة إلا أنها قامت على أساس الافتراض وليس الحقيقة, فيستحيل وجود مجتمع يتفق فيه جميع أعضائه على إبرام العقد لذا اعتبرت أنها تميل إلى المثالية, كما أن البعض رأى أن نظرية العقد الاجتماعي قائمة على فكرة التنازل, أذ يتنازل الأفراد عن جزء من حقوقهم مقابل التمتع بمميزات المجتمع السياسي (جمال، ٢٠١٠).

٣. المجتمع المدني:

ان تطور الدولة عند ابن خلدون, يعود إلى التجمع الحضري, أو كما يسميها المجتمع المدني, فلا تنشأ الدولة عند المجتمع الطبيعي أو التجمع البدوي, وعلل سبب عدم نشأة الدولة في المجتمع البدوي لعدة أمور منها, أن الدولة تنشأ في التجمع السكاني لأفراد في مكان ثابت, فالمجتمع البدوي يتميز بالترحال وعدم الاستقرار, كما أن المجتمع البدوي تميز بوجود عصبيات ولكن ما أعاق تلك العصبيات التي تُبطل شرط قيام الدولة هي أن تلك العصبيات في طور التكوين والنمو, ومتفاوتة القوى, كما أنها متفرقة بين الجماعات (جماعات البدو), المميز أن

تلك العصبية تنشأ في المجتمع البدوي, فعندما تصبح تلك العصبية ذات قوة كبيرة وموحدة يتم شرط العصبية في نشوء الدولة وعند انتقالها إلى المجتمع الحضري (خليل، ١٩٨٣).

المطلب الثاني: أسباب ضعف وانهيار الدول:

قرر الفيلسوف الاجتماعي ابن خلدون ان للدول أعمارا طبيعية كما للأشخاص أعمار محدودة، وذهب إلى أن عمر الدولة في الغالب لا يعدو أعمار ثلاثة أجيال، وإلى جانب العمر الافتراضي الطبيعي للدول بمؤسساتها ومرافقها فإن ثمة عوارض ذاتية أو موضوعية قد تعتريها فتؤثر على مسيرة حياتها زيادة أو نقصانا، ونشير هنا إلى أسباب ضعف وسقوط الدولة وانقراضها على ضوء النظرية الخلدونية الشهيرة.

١. الضرائب والجبايات في أواخر الدولة:

ذكر ابن خلدون ان صاحب الدولة يستحدث أنواعا من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدرا معلوما على الأثمان في الأسواق، وعلى أعيان السلع في موال المدينة، وهو مع ذلك مضطر لذلك بما دعاه إليه طرق الناس من كثرة العطاء من زيادة الجيوش والحامية، وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الأسواق لفساد الآمال، ويؤذن ذلك باختلال العمران", وهو ما نجده اليوم من أنواع الضرائب والرسوم والواجبات المفروضة على المواطن وهي كثيرة مقابل الحقوق التي له، كل تلك الجبايات والرسوم لا يعود ريعا على الدولة ومصالح الناس كما هو الأصل منها بقدر ما يعود على بعض المقربين من "الجيوش والحامية" التي ذكرها ابن خلدون ونلمسها نحن اليوم، وقد زادت كما هو معروف في الآونة الأخيرة، فرأينا مئات وآلاف المشاريع الاستثمارية قد فسدت في البلاد بعد أن كسد السوق بفعل فساد الآمال من العوائد "**الأرباح**" وقد أصبح على كل مستثمر شريك له في حقوقه المشروعة بلا وجه حق، فغادر المستثمرون البلاد بفعل اشتراطات الأبناء والأولاد، واختل العمران (علوان، ٢٠٢١).

٢. تجارة السلطان مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية:

ذكر ابن خلدون: "إن الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون، ومزاحمة بعضهم بعضا تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب، وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيرا منهم فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد (علوان، ٢٠٢١).

ويشير الى تجارة المسؤولين في الدولة التي تحرم كل دساتير العالم وقوانينها تقريبا على حرمة الجمع بين التجارة والسياسة، ذلك أن تداخلا في المصالح العامة والخاصة قد يطرأ على العملية التجارية بصورة مباشرة وغير مباشرة، والنفوس البشرية ضعيفة أمام المال، فتضطر إلى التكسب غير المشروع الذي يضر في نهاية المطاف بالطبقة الدنيا من الناس، ثم إن الثروة أيضا مرتبطة بالجاه الاجتماعي، ومتى ما اجتمعت الثروة والمسؤولية في جماعة ما فسدت التجارة والسياسة معا، وأصبح المال حكرا على جماعة دون أخرى، ولذلك ذكر الله في كتابه الكريم ونهى أن يكون المال "**دولة بين الأغنياء**" فقط دون غيرهم, وكما رأى الجميع ما من طاغية سقط اليوم إلا وكان من أثرياء القوم وأغنى الأمة، وذلك أحد أسباب سقوطه (الله، ٢٠٠٠).

٣. الظلم مؤذن بخراب العمران:

ذكر ابن خلدون ، الظلم على صور شتى، فقال: "اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيرا عاما في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها، وإن كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته، والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب, فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال وابذعر الناس في الآفاق ... وخلت دياره وخرجت أمصاره واختل باختلاله حالة الدولة والسلطان" (الجابري، ٢٠٠٧).

والناس شـركاء جميعا على ما في باطن الأرض وظاهرها من الثروات والخيرات، والحاكم أجير مسـتأمن عليها، والتحايل عليها من قبله مفسـدة للعقد الاجتماعي بين الطرفين ومضر بمسيرة الحياة الإنسـانية ومفسـدة للعمران، ذلك أنه مع بداية التعدي يحصـل التعدي المضـاد، ومع التعدي والتعدي والمضـاد بين الطرفين تضـطرب الحياة السـياسـية والاجتماعية وتضـطرب الدولة ويتراجع البناء والعمران، الاعتداء على مقدرات الأمة ومكتسـباتها خلخلة لكثير من القيم الأخلاقية والمجتمعية التي تنتشـر بانتشـار الفقر كما ذكر ذلك أيضـا عبد الرحمن الكواكبي في "**طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**" ولا نذهب اليوم بعيدا، فاليوم كثيرا من رؤوس المال المهاجرة قد تركت بلادها وهاجرت خلف البحار والمحيطات، هناك في بلاد الغرب حيث الأمن والأمان على الأموال والحقوق بلا منازع من أحد ولا تعد من نافذ، ورأس المال العربي واليمني قد تفرق في الآفاق بعيدا لا يسـتفيد منه أهله، باحثا عن بيئة آمنة، ولذا اختل عندنا حالة الدولة والسلطان (الجابري، ٢٠٠٧).

٤. شيوع الترف بين الحاشية وقلة الإنفاق:

تتزايد حاجة الحاكم يوما بعد يوم للمال ومظاهر الملك، حتى لم يعد يكفيه منفردا ما قد يكفي شـعبا أو أمة بأكملها، والتفرد في المأكل والمشـرب والملبس والمسكن من مسـتلزمات الملك والسـلطنة، ولو بوسـع الحاكم أن يتفرد بالماء والهواء لفعل, ومن هنا يحاول الحاشـية التشـبه به إلى الحد الذي يقترب منه لا يزيد عليه أو يسـاويه، وكل ذلك من عائدات الجبايات "**الضـرائب والرسـوم**" التي هي ملك عام للدولة، فتبدأ من هنا الأحقاد والأضـغان بين العامة والحاشـية، لاسـيما مع ضـيق ذات اليد وتراجع الحال، ومن ثم تكثر الفتن في الدولة وتتشعب الفئات والجماعات وكثر الخارجون عليه رويدا رويدا على حين غفلة منه وانشغاله بالملك وإصلاح وضع الحاشية، ذكر ابن خلدون: "فتنصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ إلى مداراة الأمور ببذل المال ويراه أرفع من السـيف لقلة غنائه، فتعظم حاجته إلى الأموال زيادة على النفقات وأرزاق الجند، ولا يغني فيما يريد، ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسـر عليها أهل النواحي، والدولة تنحل عراها في كل طور من هذه إلى أن تفضـي إلى الهلاك, فإن قصـدها طالب انتزعها من أيدي القائمين بها وإلا بقيت وهي تتلاشـى إلى أن تضـمحل كالذبال في السـراج إذا فني زيته وطفئ.. (زيد، ١٠٧٧) وارتبط بذلك أيضا من جهة تساقط وضعف الشوكة والعصبية التي هي أساس الملك في الدولة حتى "تتجاسـر الرعايا على بعض الدولة في الأطراف ويبادر الخوارج على الدولة, ولا يزال ذلك يتدرج حتى تصـير الخوارج في أقرب الأماكن إلى مركز الدولة (زيد، ١٠٧٧)" , وذلك ما نراه اليوم ماثلا بتمامه وكماله، اذ بدأت أصوات الخارجين والمحتجين من أطراف البلاد وأقاصيها واليوم على بعد أمتار من دار الحكم، طامعة في الاستيلاء عليه.

الخاتمة:

نستخلص من دراستنا أن ابن خلدون فصل بين تطور الدولة باعتبارها شخصاً يملك، وعصبية غالبة، وأخرى مغلوبة، وربط تطور الدولة في المسـتوى الأول بتطور الحسـب نازلاً من القوة إلى الضـعف، وفي المسـتوى الثاني ربط تطور الدولة بتحول العصـبية من التعاون والتعاضـد إلى التنافس والتخاذل, أما تطور كلية الدولة باعتبارها أسـرة حاكمة وعصـبيات مغلوبة محكومة، فيعني أسـاسـاً تطور الحكم كله من المسـاهمة والمشـاركة، والرفق بالرعية إلى الانفراد بالمجد والاسـتبداد بالحكم, وإن عمران الدولة وقيامها وتطورها مرهون بقيام العدل فيها وعدم التفرد في الحكم على حسـاب المحكومين, ببذل المال ومظاهر الملك, لأن الناس جميعاً شـركاء في خيرات الدولة باطنها وظاهرها.

المصادر:

ابن خلدون اسلامياً، عماد الدين خليل، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ص١٦.

ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥، ص٢٢٠.

جميل صليب وكامل عياد، منتخبات من ابن خلدون، دمشق، ١٩٣٤، ص ١٢٢.

جميل صليب، مصدر سابق، ص١٢٣.

حسن الساعاتي، المصدر نفسه.

حسن الساعاتي، علم الاجتماع الخلدوني، ط٣, دار المعارف للنشر، القاهرة, ١٩٧٥, ص١٢١.

حسين عاصي، ابن خلدون مؤرخاً، دار الكتب العلمية، لبنان, ١٩٩١, ص١٦.

علي الوردي، المصدر نفسه.

علي الوردي، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، القاهرة, ١٩٦٢, ص١٠.

رافد محمد طه، المصدر نفسه

رائد محمد طه، اسهامات ابن خلدون في رفد علم الاجتماع والانثروبولوجيا بمفاهيم لغوية، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين, ٢٠١٢, ص٤.

رياض عزيز هادي، مفهوم الدولة ونشوئها عند ابن خلدون، مجلة العلوم السياسية، العدد٣٧, جامعة بغداد، ص٧٨.

السيد محمد بن تاويت الطنجي، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، القاهرة, ١٩٥١, ص٩٧.

شعبان جمال وآخرون، فكر ابن خلدون الحداثة والحضارة والهيمنة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية, ٢٠١٠, ص ٢١٩.

صادق الأسود، المصدر السابق، ص٧٦.

صادق الأسود، علم الاجتماع السياسي، مطبعة الارشاد، بغداد,١٩٧٣, ص١٢.

عبد المعين الطلفاح، ابن خلدون ورؤيته الاصلاحية، موقع الجزيرة، متاح على الرابط: https://www.aljazeera.net/blogs، في ٣٠-٥-٢٠٢٣.

عبد المعين الطلفاح، المصدر السابق، ص١٢.

عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بيت الأفكار الدولية، السعودية، د.ت، ص٨.

عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة: محمد الشـريف بن دالي حسـين، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٨, ص١١.

عبد الغني مغربي، مصدر سابق، ص١١.

علي سعد الله، نظرية الدولة في الفكر الخلدوني، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الاردن,٢٠٠٠, ص٣٧.

ليث حسين علوان، اسباب انهيار الدول في مقدمة ابن خلدون، الجامعة العراقية كلية التربية للبنات، العدد١٤, ٢٠٢١, ص٣٤٧.

المصدر نفسه، ص٣٤٤.

محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية، ط٨, مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت, ٢٠٠٧, ص٨٩.

المصدر نفسه، ص٩٣.

منى احمد ابو زيد، الفكر الكلامي عند ابن خلدون، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع, ١٩٩٧, ص١٢٢.

المصدر نفسه، ص١٣٩.

ناصيف نصار، الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دار الطليعة، لبنان, ١٩٨١, ص٢٦.

Resources:

Ibn Khaldun as an Islamic scholar, Imad al-Din Khalil, Islamic Office, Beirut, 1983, p. 16.
Ibn Khaldun, Introduction to Ibn Khaldun, Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, 1995, p. 220.
Jamil Salib and Kamil Ayyad, Selections from Ibn Khaldun, Damascus, 1934, p. 122.
Jamil Salib, previous source, p. 123.
Hassan al-Saati, same source.
Hassan al-Saati, Khaldunian Sociology, 3rd ed., Dar al-Maaref Publishing, Cairo, 1975, p. 121.
Hussein Assi, Ibn Khaldun as a Historian, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Lebanon, 1991, p. 16.
Ali al-Wardi, same source.
Ali al-Wardi, Ibn Khaldun's Logic in the Light of His Civilization and Personality, Cairo, 1962, p. 10.
Rafid Muhammad Taha, the same source
Raed Muhammad Taha, Ibn Khaldun's contributions to supporting sociology and anthropology with linguistic concepts, An-Najah National University, Palestine, 2012, p. 4.
Riyad Aziz Hadi, The concept of the state and its emergence according to Ibn Khaldun, Political Science Journal, Issue 37, University of Baghdad, p. 78.
Sayyid Muhammad bin Tawit Al-Tanji, Introduction to Ibn Khaldun and his journey east and west, Cairo, 1951, p. 97.
Shaaban Jamal and others, Ibn Khaldun's thought: modernity, civilization and hegemony, Beirut, Center for Arab Unity Studies, 2010, p. 219.
Sadiq Al-Aswad, the previous source, p. 76.
Sadiq Al-Aswad, Political Sociology, Al-Irshad Press, Baghdad, 1973, p. 12.
Abdul-Moein Al-Talfah, Ibn Khaldun and his reformist vision, Al-Jazeera website, available at: https://www.aljazeera.net/blogs, on 5/30/2023.
Abdul-Moein Al-Talfah, previous source, p. 12.
Abdul-Rahman Ibn Khaldun, History of Ibn Khaldun, International House of Ideas, Saudi Arabia, n.d., p. 8.
Abdul-Ghani Maghribi, Social Thought in Ibn Khaldun, translated by: Muhammad Al-Sharif bin Dali Hussein, University Publications House, Algeria, 1988, p. 11.
Abdul-Ghani Maghribi, previous source, p. 11.
Ali Saad Allah, The Theory of the State in Khaldunian Thought, Majdalawi Publishing and Distribution House, Jordan, 2000, p. 37.
Laith Hussein Alwan, Reasons for the Collapse of States in Ibn Khaldun's Introduction, University of Iraq, College of Education for Girls, Issue 14, 2021, p. 347.
The same source, p. 344.
Muhammad Abed Al-Jabri, Ibn Khaldun's Asabiyyah Thought, 8th ed., Center for Arab Unity Studies, Beirut, 2007, p. 89.
The same source, p. 93.
Mona Ahmed Abu Zaid, Theological Thought of ibn Khaldun, University Foundation for Publishing and Distribution, 1997, p. 122.
The same source, p. 139.
Nassif Nassar, Realistic Thought of ibn Khaldun, Dar Al-Tali'ah, Lebanon, 1981, p. 26.